

من الانترنت إلى غوتنبرغ

(من سيقتل الآخر؟)

بقلم /إمبرتو إيكو

ترجمة/ إيمان بقطاش عن اللغة الإنجليزية

حين عرض هيرمس، صاحب اختراع الكتابة المزعوم، ابتكاره على الفرعون تاموس، حسبما جاء في كتاب أفلاطون (فيدرا)، أشاد بتقنيته الجديدة تلك التي كان من المفترض أن تسمح للبشرية باستذكار ما قد ستؤول إلى نسيانه . لكن ذلك لم يرض الفرعون، إذ كان رده : " أيها العبقري ثوت، إن الذاكرة هبة عظيمة ينبغي إبقاؤها على قيد الحياة، من خلال تدريبها باستمرار، غير أن اختراعك هذا لن يلزم الناس قط على تدريبها أبدا، إذ أنهم لن يتذكروا الأمور بفضل جهد داخلي بل بمجرد الاستناد إلى وسيلة خارجية "

بإمكاننا أن نتفهم انشغال الفرعون، ذلك لأن الكتابة، مثلها مثل أي أداة تكنولوجية جديدة، قد يكون من شأنها أن تجعل القوة البشرية بليدة، حين تحل مكانها وتعززها، كما هو الحال في مجال السيارات التي صيرتنا عاجزين عن المشي. لقد شكلت الكتابة خطرا لأنها هونت قدرات العقل حين قدمت روحا متحجرة للكائن البشري ورسمت كاريكاتوريا للعقل وذاكرة عضوية.

ويعتبر نص أفلاطون نصا تهكميا بالطبع، إذ انه أقام حجته في مواجهة الكتابة، لكنه زعم أن خطابه ذاك إنما هو كلام سقراط الذي لم يدون شيئا قط (ذلك أنه لم ينشر شيئا، بل هلك في أثناء نضاله الفكري).

لا أحد في الوقت الحاضر يشاطر مثل هذا الانشغال وذلك لسببين اثنين في غاية البساطة، أولهما هو أننا نعلم أن الكتب ليست طرقا لجعل شخص ما يفكر نيابة عنا، بل هي على العكس من ذلك أدوات تستحثنا على إثارة أفكار أخرى. فبعد ابتداع الكتابة فقط، أصبح من الممكن تأليف تحفة فنية عن الذاكرة العفوية على حد ما فعله مارسيل بروسست في روايته (بحثا عن الزمن الضائع) (A la recherche du temps perdu).

وثانيهما هو أنه إذا كان الناس فيما مضى يحتاجون إلى تدريب ذاكرتهم من أجل استذكار الأشياء، فإنه تعين عليهم بعد اختراع الكتاب تدريب ذاكرتهم أيضا بغاية استذكار الكتب . فالكتب تتحدى الذاكرة وتقويها، ولا تسعى إلى تخديرها.

ومع ذلك فقد كان الفرعون في زمنه يرى في ذلك خطرا مستديما، أي الخطر الذي قد يثيره إنجاز تكنولوجي جديد بالإغاء أو إتلاف ما نعتبره أمرا ثمينا مثمرا، أو شيئا يمثل فضيلة في حد ذاته، وينطوي على قيمة روحية.

ولكأننا بالفرعون يقول وهو يشير إلى المساحة المكتوبة أولا، ثم إلى صورة مثالية للذاكرة البشرية: " هذه ستقتل

تلك "

وبعد مرور أكثر من ألف سنة، عرض علينا فيكتور هيجو في كتابه "أحدب نوترودام" القسيس كلود فرولو وهو يشير بإصبعه أولاً إلى كتاب، ثم إلى الأبراج فإلى صور كاتدرائيته المحبوبة، قائلاً: "هذا سيقتل ذلك" (سيقتل الكتاب الكاتدرائية، و ستقضي الحروف على الصور).

لقد وقعت أحداث قصة "نوترودام" في القرن الخامس عشر، أي بعد اختراع الطباعة بوقت قصير، وقبل ذلك، كانت المخطوطات مقصورة على نخبة من المتعلمين، لكن الوسائل الوحيدة لتعليم الجماهير قصص الكتاب المقدس وحياة المسيح والقديسين والمبادئ الأخلاقية، بل وحتى المآثر التاريخية الوطنية أو أبسط المفاهيم المبدئية في الجغرافيا والعلوم الطبيعية (طبيعة الشعوب الغير المعروفة وخصائص الأعشاب والأحجار) كانت جميعها مأخوذة من صور الكاتدرائية. وكانت كاتدرائية العصور الوسطى أشبه ببرنامج تلفزيوني دائم وغير قابل للتغيير، يفترض فيه أن يقول للناس كل شيء ضروري لحياتهم اليومية تماماً مثلما هو الحال عليه بالنسبة لخالصهم الأبدى. إذ كان من الممكن أن يقود الكتاب إلى أن يشغل الناس أذهانهم عن أهم قيمهم كلها وأن يشجعهم على اكتساب معلومات لا طائل من ورائها وأن يسعوا إلى تأويل الكتب المقدسة على هواهم وإلى الخوض في فضول أرعن.

خلال الستينات، نشر "مارشال ماكلوهان" كتابه "مجرة غوتنبرغ" (the Gutenberg Galaxy) معلناً فيه أن الطريقة الخطية للتفكير التي كان اختراع الصحافة وراءها على وشك أن تستبدل بوسيلة استقبال وفهم أكثر عالمية عبر صور التلفزيون أو أنواع أخرى من الأجهزة الالكترونية. وإذا لم يكن ماكلوهان قد جزم برأيه في هذا الشأن، فمن المؤكد أن أعظم قرائه أشاروا حتماً إلى ملهى في (مانهاتن) أولاً، ثم إلى الكتب المطبوعة قائلين: "هذا سيقتل ذلك".

كانت وسائل الإعلام في حاجة إلى بعض الوقت لكي تتقبل الفكرة القائلة بأن حضارتنا صارت على وشك أن تصبح صورة موجهة، وفي مقدورها أن تؤدي إلى تدهور مستوى المعرفة والكتابة. وأصبح هذا الأمر في الوقت الحاضر بمثابة شعار بين جميع المجلات الأسبوعية. والغريب فيه هو شروع وسائل الإعلام في الاحتفاء بتدهور نسبة المعرفة والكتابة وطغيان قوة الصورة في الوقت الذي شهدت فيه الساحة العالمية ظهور الحاسوب.

ولا شك في أن الحاسوب جهاز يمكن المرء من عرض الصور وطبعها، كما أنه لا شك في أن تزويده بالمعلومات يتم عن طريق الأيقونات، ولكن من المؤكد سواء بسواء أن الحاسوب صار، أولاً وقبل كل شيء، جهازاً أبجدياً تجري الكلمات والجمل على شاشته، وعند استخدامه لا بد أن تكون لدينا القدرة على الكتابة والقراءة. إن الجيل الجديد الذي يستخدم الحاسوب الجديد مدرب على القراءة بسرعة خيالية، ذلك أنه ليس بمقدور أستاذ جامعي قديم قراءة ما هو مكتوب على شاشة الحاسوب بنفس سرعة المراهقين. وإذا كان هؤلاء المراهقون راغبين في برمجة حواسيبهم الشخصية، تعين عليهم معرفة ودراسة الإجراءات المنطقية والخوارزميات وكذا كتابة الكلمات و الأرقام على لوح المفاتيح بشكل سريع.

وفي هذا النطاق يمكن أن نقول إن الحاسوب جعلنا نعود إلى "مجرة غوتنبرغ"، فالأشخاص الذين يقضون لياليهم في دردشة غير منتهية عبر الانترنت يستخدمون الكلمات أساساً. وإذا اعتبرت شاشة التلفاز نافذة مثالية يمكن للمرء أن يشاهد العالم بأكمله من خلالها على شكل صور، فإن شاشة الحاسوب هي بمثابة كتاب مثالي في وسع المرء أن يقرأ العالم عبره في شكل كلمات وصفحات.

لقد قدم الحاسوب الكلاسيكي شكلا خطيا عن التواصل الكتابي، وعرضت شاشته سطورا مكتوبة، فصار بمثابة كتاب للقراءة السريعة.

أما الآن، فهناك نصوص تجمع بين ما هو مكتوب ومصور. فقد كان على الإنسان أن يقرأ بطريقة خطية ما في الكتاب، من اليسار إلى اليمين (أو من اليمين إلى اليسار، أو من أعلى إلى أسفل تبعا للثقافات المختلفة). وكان قادرا على أن ينزلق على نحو جلي عبر الصفحات والعودة - بعد الوصول إلى الصفحة 300 - إلى مراجعة أو إعادة قراءة شيء في الصفحة العاشرة، لكن ذلك يتطلب جهدا، أعني جهدا جسديا. أما في النص الذي يتضمن الصور والحروف في شكل شبكة متعددة الأبعاد، فإنه من الممكن أن تترابط جميع النقط أو العقد ويتحقق الانتقال فيما بينها.

ونكون ها هنا قد وصلنا إلى الفصل الأخير من قصة "هذا سيقتل ذاك". وقد اتضح أكثر فأكثر أن الأقراص المضغوطة المتضمنة نصوصا تجمع بين الحروف والصور هي التي ستحل مكان الكتب.

ويفترض أن تصبح الكتب في عداد الماضي بظهور القرص المرن الذي يتضمن النص والصورة. فإذا اعتبرنا أن النص الذي ينطوي على الحروف والصور عبارة عن تكنولوجيا متعددة الوسائط كذلك، فإن جل الأقراص المرنة لن تتضمن نصوصا مماثلة فحسب، بل وأشرطة فيديو أيضا وأدوات أخرى.

وعلينا أن نسأل أنفسنا الآن ما إذا كانت مثل هذه التطلعات واقعية أم محض خيال، وما إذا كانت الموازنة التي أشرنا إليها بين الاتصال المرئي والأبجدي، والكتب والنصوص التي تحيل على روابط متعددة، بسيطة إلى هذا الحد. دعوني أعرض عليكم سلسلة من المشاكل والحلول الممكنة المتعلقة بمستقبلنا.

فحتى بعد اختراع الطباعة، لم تعتبر الكتب الأداة الوحيدة لاكتساب المعلومات، بل كانت هناك اللوحات الفنية والرسوم الشعبية المطبوعة والتعليم الشفهي وغير ذلك. وهكذا أمكن القول إن الكتب كانت، في جميع الأحوال، أهم أداة لنقل المعلومات العلمية، بما في ذلك الأخبار عن الوقائع التاريخية. وذلك يعني أنها كانت الأداة الأساسية المستخدمة في المدارس.

ومع انتشار وسائل الإعلام المختلفة، من سينما وتلفزيون، حدث نوع من التغيير. فمنذ عدة سنوات كانت الطريقة الوحيدة لتعلم لغة ما (باستثناء السفر إلى الخارج) تتمثل في دراسة هذه اللغة من خلال كتاب. أما الآن فغالبا ما يتعلم أولادنا لغات أخرى بالاستماع إلى تسجيلات ومشاهدة أفلام في طبعاتها الأصلية وفك رموز التعليمات المطبوعة على علب المشروبات، كما أن نفس الشيء فيما يتعلق بالمعلومات الجغرافية. وفي طفولتي، لم أعتد في الحصول على معلوماتي عن البلدان الأجنبية على نصوص الكتب، بل بقراءة المغامرات الروائية (جول فيرن على سبيل المثال). وقد تعلم أبنائي في وقت مبكر جدا أكثر مني عن نفس المواضيع بمشاهدة التلفزيون والأفلام. فبإمكان الإنسان أن يتعرف على تاريخ الإمبراطورية الرومانية من خلال الأفلام شريطة أن تكون هذه الأخيرة صحيحة تاريخيا. ولم يكن ذنب (هوليود) في جعل أفلامها تتعارض مع كتب "تاسيتوس" (Tacitus) و"جيبون" (Gibbon)، بل في فرض رواية تتسم بالإثارة و الرومانسية على كل من "تاسيتوس" و"جيبون".

والمقدور برنامج تلفزيوني تعليمي (ولا يدور الحديث هنا حول القرص المضغوط) تفسير موضوع الوراثة أفضل من الكتاب. إذ تدخل في الوقت الحاضر وسائل إعلام كثيرة ضمن مفهوم محو الأمية، وعليه، فلا بد من انتهاج سياسة مستنيرة لمحو هذه الظاهرة تراعي الإمكانيات التي تتضمنها جميع وسائل الإعلام، ولا بد من توسيع مجال الانشغالات التعليمية لتشملها بأكملها. ثم إنه لا بد من الحرص على توزيع المسؤوليات والمهام بشكل متوازن. فإذا كانت آلة التسجيل أفضل من الكتب لتعلم اللغات، فذلك يعني ضرورة الاهتمام بالأشرطة، وإذا ساعد حفل موسيقي لـ "شوبان Chopin" مدعم بتعليق على الأقراص المضغوطة من أجل فهمه، فلا عجب إن تردد الناس في اقتناء خمسة مجلدات عن تاريخ الموسيقى.

وحتى وإن كان صحيحا في عالم اليوم أن الاتصال المرئي يطغى على الاتصال المكتوب، فإن المشكلة لا تكمن في معارضة أحدهما للآخر، بل في كيفية تحسينهما معا. لقد كان للاتصال المرئي في العصور الوسطى أهمية أكبر في أنظار الجماهير، لكن ذلك لا يعني أن كاتدرائية "شارتر" كانت أقل أهمية على الصعيد الثقافي من (موسوعة) " صورة العالم، لهونوريوس (Imago Mundi of Honorius of Autun). لقد كانت الكاتدرائيات بمثابة تلفاز تلك الفترة، إلا أن الفرق بين ذلك التلفاز وبين الجهاز الحالي هو أن مديري تلفزة العصور الوسطى كانوا، إلى جانب مطالعاتهم الكتب القيمة، يتمتعون بخيال فياض، ويعملون من أجل المصلحة العامة (أو على الأقل من أجل ما كانوا يؤمنون بأنه يمثل مصلحة عامة).

غير أن المشاكل الحقيقية لا تكمن هنا، إذ لا بد من المساواة بين ما هو ملفوظ وبين ما هو مكتوب أساسا وذلك لأسباب عديدة. وقد نشر صول وورث Sol Worth، أحد علماء علم الدلالة، مقالة تحمل العنوان التالي " الصور لا يمكنها أن تقول لا "، وبالتالي يمكنني القول إنه "لا وجود للحصان الوحيد القرن unicorn"، لكن إذا عرضت صورة لهذا الحصان فمعنى ذلك أنه موجود. فهل هذا الحصان الذي أراه هنا واحد من بين أنواع أخرى، أم هو الحصان الوحيد القرن في حد ذاته؟ أعني هل الحديث يخص حصانا واحدا أم جميع الأحصنة الوحيدة القرن بشكل عام ؟

ليست هذه المسألة عديمة الأهمية مثلما تبدو عليه، إذ كثيرا ما كتب علماء علم المنطق و الإشارات عن الفروق الكامنة بين عبارات مثل: طفل، الطفل، هذا الطفل، جميع الأطفال، الطفولة من حيث فكرة عامة. وكثرة وجوه الاختلاف هذه لا يمكن عرضها عرضا يسيرا بواسطة الصور. وفي هذا الصدد، يتساءل "نلسون غودمان" في كتابه "لغات الفنون" (Languages of Arts) ما إذا كانت صورة امرأة تمثل امرأة بصفة عامة، أم لوحة امرأة معينة، أم مثلا لمواصفات مميزة تخص امرأة ما، أم مرادفة لجملة : هناك امرأة تنظر إلي.

يمكن القول إن التعليق في مقدوره أن يساعد الإنسان على فهم ما يعنيه الملصق أو الكتاب المصور وأنواع أخرى من الكتابة. ولكنني أود تذكركم بصورة بلاغية يقال لها المثال، وهي الصورة التي خصص لها أرسطو عددا من الصفحات المثيرة للاهتمام. فمن أجل إقناع شخص ما حول مسألة معينة، يكون البرهان الأكثر إقناعا عن طريق الاستقراء. واشترط لهذا الأخير وجود حالات عديدة، ثم استنتج أنها قد تمثل قاعدة عامة له.

فلنفترض أنني أريد البرهنة على أن الكلاب لطيفة ومحبة لأسيادها: إنني أشرت وجود حالات عديدة يكون فيها الكلب قد أثبت أنه لطيف وخدم، وأقترح أن تكون هناك قاعدة عامة يكون فيها اللطف ميزة جميع الحيوانات المنتمية إلى هذه الفصيلة.

ولنفترض الآن أنني أريد إقناعكم بأن الكلاب خطيرة، وبمقدوري فعل ذلك بتقديمكم المثال التالي: "ذات يوم، قتل كلب سيده". يمكنكم حينئذ الفهم ببساطة أن حالة واحدة لا تثبت شيئاً. لكن إذا كان المثال مربعاً، فإنني أقترح خلصة أن الكلب بإمكانه أن يكون عدائياً. وعند اقتناعكم أن الأمر قد يكون كذلك، أكون تمكنت على نحو غير ملائم من استخلاص قاعدة من خلال حالة واحدة ومن بلوغ الاستنتاج التالي: "إنه لا يمكن الوثوق بالكلاب". إنني باستعمال الصورة البلاغية، وأعني بها هنا المثال، أكون قد انتقلت من كلب واحد إلى التعميم على جميع الكلاب.

إذا كان تفكيركم نقدياً، أصبح في مقدوركم أن تتركوا أنني تلاعبت في استخدام تعبير لفظي (كان هناك كلب مؤذ) لتحويله إلى (أن جميع الكلاب مؤذية)، وهو ما يختلف في معناه. ولكن إذا كان المثال مرئياً بدلا من أن يكون لفظياً، فسيكون الرد النقدي أكثر صعوبة. لو عرضت عليكم صورة فظيعة لكلب معين يعرض سيده، سيكون التمييز هاهنا بين الكلام الخاص والكلام العام صعباً، لكن سيكون من السهل أن أجعل هذا الكلب يمثل فصيلته. فلصورة، إن جاز التعبير، نوع من القوة المعنوية الأفلاطونية من حيث إنها تحول الأفكار الخاصة إلى أفكار عامة.

وبالتالي يصبح تحقيق إستراتيجيات مقنعة كفيلاً بأن تقلل قدرتنا النقدية أمراً أسهل عن طريق اتصال مرئي محض وبواسطة التربية. فإذا قرأت في الجريدة عن رجل معين يقول: "نريد أن يكون السيد فلان رئيساً" أكون على دراية بأنني تلقيت الرأي عن شخص معين. و لكن إذا شاهدت على شاشة التلفزيون رجلاً يقول بحماس: "نريد السيد فلان رئيساً" يكون من الأسهل كثيراً اتخاذ رغبة هذا الفرد مثالا عن الرغبة العامة.

وكثيراً ما يدور في خلدي أن مجتمعاتنا سائرة نحو الانشطار في وقت قريب (هذا إذا لم تكن قد انشطرت بالفعل) إلى فئتين من المواطنين: أولئك الذين يشاهدون التلفزيون، أي يتلقون صوراً جاهزة، ومن ثم، مفاهيم مسبقة عن العالم دون أن تتوافر لديهم القدرة على نقد المعلومات التي يلتقطونها والتي تكون قد اختيرت مسبقاً. وأولئك الذين يعرفون كيفية التعامل مع جهاز الحاسوب وانتقاء المعلومات، وهو الأمر الذي سيعيد الانشطار الثقافي الذي سبق أن وجد في عهد "كلود فرولو" بين الذين كان بإمكانهم قراءة المخطوطات، ومن ثم، نقد المسائل الدينية والعلمية أو الفلسفية وأولئك الذين تلقوا تعليمهم عن طريق صور الكاتدرائية المختارة التي قدمها لهم سادتهم، أي الأقلية المتعلمة.

يستطيع كاتب قصص خيالية تصور الشيء الكثير عن عالم مستقبلتي تتلقى فيه غالبية الطبقة الكادحة الاتصال المرئي فقط، أي ذلك الذي برمجته نخبة من الذين تعلموا الحاسوب.

هناك نوعان من الكتب: كتب موجهة للقراءة وأخرى للإطلاع على ما تتضمنه من معلومات. وطالما تعلق الأمر بالكتب الموجهة للقراءة (سواء أكانت روايات أم مقالات فلسفية أم دراسات سوسيولوجية أم غيرها) فإن الطريقة العادية لقراءتها، هي تلك التي أطلق عليها تسمية "قصص التحريات البوليسية". فأنتم تبدأون قراءتها من الصفحة الأولى، أي حيث يطلعكم الكاتب على أن هناك جريمة ارتكبت، فتتابعون جميع خطوات التحقيق حتى النهاية، وتكتشفون في آخر

المطاف أن المذنب هو كبير الخدم. وهنا تنتهي القصة وتجربتكم في القراءة أيضا. لاحظوا أن مثل هذا الأمر يحدث كذلك حتى وإن أنتم قرأتم على سبيل المثال "مقالة في المنهج" (Discours de la Méthode) لديكار، ذلك أن الكاتب أراد منكم فتح الكتاب على صفحته الأولى ومتابعة سلسلة الأسئلة التي طرحها وملاحظة كيف تمكن من الوصول إلى بعض الاستنتاجات النهائية. وبالطبع، يستطيع المثقف الذي اطلع على هذا الكتاب من قبل إعادة قراءته مع الانتقال من الصفحة الأولى إلى الأخيرة، محاولا عزل وجود أي صلة بين تعبير وارد في الفصل الأول وآخر في الفصل الأخير. كما يمكن للمثقف أن يقرر عزل جميع الأحداث المتعلقة بكلمة "قدس" في مؤلف "توماس الأكويني الضخم، وسيعني ذلك تجاوز آلاف الصفحات من أجل لفت انتباهه إلى الفقرات التي تتعلق بموضوع القدس، وما تلك إلا طرق من القراءة التي يعتبرها الشخص العادي غير طبيعية.

ثم تليها الكتب التي يمكن الرجوع إليها مثل كتب الإرشادات والموسوعات. فأحيانا لا بد من قراءة كل محتوى الكتيبات من البداية إلى النهاية، لكن إذا كان للمرء معرفة كافية بالمسألة أمكنه الإطلاع عليها أو اختيار بعض الفصول أو الفقرات منها. عندما كنت في الثانوية، كان علي قراءة كتيب في الرياضيات بكامله وبطريقة خطية، واليوم إذا احتجت إلى مفهوم معين في اللوغارتم، ما علي سوى الإطلاع عليه. ولقد احتفظت به على أحد رفوفي، لا لقراءته أو إعادة قراءته كل يوم، بل لأنني سأبقيه من أجل العثور على عنصر قد أكون بحاجة إليه ربما بعد عشر سنوات.

أما الموسوعات فهي موضوعة بهدف الإطلاع عليها، لا لقراءتها من أول صفحة إلى آخر صفحة منها. وأحيانا، قد يأخذ شخص ما مجلدا من مجلدات موسوعة ما لمعرفة تاريخ وفاة نابليون أو لاستعادة صيغة حمض الكبريت، لكن المثقفين يستعملونها في حالات أكثر تعقيدا. فعلى سبيل المثال إذا أردت معرفة ما إذا كان ممكنا أن يكون نابليون قد التقى بكانط، تعين علي أن أتناول المجلد الذي يحمل حرف "كاف" ومجلد حرف "النون" من الموسوعة، وأكتشف حينها أن نابليون ولد في عام 1769 وتوفي سنة 1821، أما كانط فهو من مواليد 1724 وتوفي سنة 1804، أي حين كان نابليون إمبراطورا. وعليه، فإن لقاءهما أمر ممكن. وربما اقتضى الأمر أن اطلع على ترجمة حياة كانط أو نابليون - لكن في نبذة عن حياة نابليون، الذي التقى بالعديد من الأشخاص. لا يمكن استبعاد فكرة لقائه بكانط، في حين يفترض أن يكون أي لقاء بينهما مدونا في سيرة كانط. وبإيجاز، يتعين علي تصفح كتب عديدة في مكتبات عديدة وكذا تدوين ملاحظات من أجل القيام بمقارنة تالية بين جميع المعطيات التي جمعتها، وذلك ما يكلفني جهدا بدنيا شاقا.

لكن، مع النص الذي يجمع بين الكتابة والصورة، بإمكانني التنقل عبر الموسوعة بأكملها، وبمقدوري ربط حدث ما مسجل في البداية مع سلسلة من الأحداث المماثلة التي جرى ذكرها في النص، ومقارنة البداية بالنهاية. سيكون في وسعي استعراض قائمة الكلمات التي تبدأ بالحرف "ألف" وجميع الحالات التي ذكر فيها اسم نابليون مرتبطا باسم كانط، وكذا مقارنة تواريخ الميلاد والوفيات. إنني باختصار أستطيع القيام بواجبي في ظرف دقائق معدودة.

ولا شك في أن مثل هذه النصوص ستؤدي إلى التخلي عن الموسوعات والكتيبات، إذ يمكن في عدد قليل من الأقراص المضغوطة (وربما في قرص واحد في وقت قريب)، تخزين أكبر عدد من المعلومات مقارنة بدائرة المعارف البريطانية بأكملها، مع ميزة الانتقال عبر المراجع و العودة إلى المعلومات بطريقة غير خطية. وستشغل الأقراص

الدمجة، (compact disk) بالإضافة إلى الحاسوب خمس المكان الذي تشغله الموسوعة، ذلك أنه لا يمكن الانتقال إلى أي مكان وحمل الموسوعة مثل القرص المضغوط، ولا يسهل تحديثها مثلما هو الأمر بالنسبة للقرص المضغوط. فالرفوف تعج حالياً في منزلي - كما في جميع المكتبات العامة- بالموسوعات، وقد تنقل من مكانها في مستقبل قريب، فلا داعي للتذمر من اختفائها.

فهل تستبدل الكتب الموجهة للقراءة بالقرص الذي يحيل على روابط متعددة؟ في الواقع، هذا السؤال يربط بين مسألتين، وقد يعاد صياغته ضمن سؤالين مختلفين .

أولهما عملي: هل ستعوض الأدوات الالكترونية الكتب الموجهة للقراءة؟.

ثانيهما نظري وجمالي: هل بإمكان القرص المتعدد الوسائط، (multimedia) الذي ينطوي على روابط متعددة، تحويل شكل الكتاب الموجه للقراءة مثل الروايات والمجموعات الشعرية؟

دعوني أجيّب في البداية عن السؤال الأول. ستبقى الكتب ضرورية لا بالنسبة للأدب فحسب، ولكن في جميع الحالات التي تتطلب قراءة متمعنة كذلك، لا من أجل تلقي المعلومات فحسب، بل وللمناقشة والتفكير حولها، فالقراءة على شاشة حاسوب لا تشبه قراءة كتاب. تخيلوا عملية تعلم برنامج حاسوب جديد. من المؤلف أن يتمكن البرنامج من عرض جميع التعليمات المطلوبة على الشاشة، ولكن غالباً ما يلجأ المستعملون الذين يرغبون في تعلم البرنامج إلى طباعة التعليمات وقراءتها في شكل كتاب، أو اقتناء دليل مطبوع، (اسمحو لي ها هنا أن أنتقد الوضع الراهن الذي يظهر جلياً انه يتم تدوين دليل الحاسوب المساعد من قبل أغبياء مستهزئين، في حين تدون الكتيبات المعروضة في السوق بأيدي عباقرة). فمن الممكن وضع برنامج مرئي يوضح جيداً طريقة طباعة و تجليد كتاب، ولكن قصد الحصول على تعليمات حول كيفية كتابة (أو استخدام) برنامج حاسوب، يتطلب الأمر وجود كتيب مطبوع.

وبعد قضاء أكثر من 12 ساعة أمام لوحة تحكم الحاسوب أصبحت عيناى مثل كرتين من لعبة التنس، وشعرت برغبة الجلوس مستريحاً على الأريكة، وقراءة جريدة، وربما قصيدة جميلة. أعتقد أن الحاسوب ينشر نوعاً جديداً من معرفة الكتابة والقراءة، لكنه عاجز عن تلبية جميع الاحتياجات الفكرية التي تستوجب التحفيز .

وأثناء ساعات استراحتي حلمت بحاسوب من جيل جديد، يقرأ لوحده ما هو مكتوب على شاشته، وملم بطرق القراءة. ولكن فجأة، زال حماسي ورحت أبحث عن طريقة للقراءة تكون مختلفة وأكثر راحة.

خلال ندوة انعقدت في جامعة سان مورينو حول مستقبل الكتاب (حيث قامت مؤسسة بريبولز "Brepols" بنشر الحوار)، لاحظ رجيس دبراي "Regis Debray" أن هناك علاقة بين قيام الحضارة اليهودية على أسس كتاب مقدس وكونها حضارة بدوية في نفس الوقت. وأعتقد أن ملاحظته هذه بالغة الأهمية. فقد استطاع المصريون نحت شواهدهم على المسلات الحجرية، ولكن لم يكن ذلك بمقدور النبي موسى. وإن أنتم أردتم عبور البحر الأحمر تبين لكم أن القراطيس كانت أنفع وسيلة لتسجيل الحدث. كما يمكننا أن نذكر بهذه المناسبة حضارة بدوية أخرى، هي الحضارة العربية القائمة على أسس كتاب مقدس كذلك، والتي كانت تفضل الكتابة بدلاً من الصور.

للكتب كذلك مزية أخرى مقارنة بالحاسوب حتى وإن تمت طباعتها على ورق الحمض الحديث الذي يعيش 70 سنة أو أكثر، أي إنها أكثر دواما من الأقراص المغناطيسية . وعلاوة على ذلك، فإنها لا تعاني من انقطاع التيار

الكهربائي، بل تتميز بمقاومتها للصدمات . ولا تزال تمثل أكثر الوسائل اقتصادية ومرونة لنقل المعلومات وبأدنى الأسعار . أما أجهزة الحواسيب فتبقى في انتظاركم في مكانها، بينما تظل الكتب تسافر معكم وبنفس سرعتكم، وفي حال ما إذا جنحت سفينتكم نحو جزيرة قفراء، انتفعتم بها، في حين أنه لن نتاح لكم الفرصة لوصول جهازكم بالكهرباء، وحتى إن كان حاسوبكم مدعما ببطاريات شمسية لن تسهل عليكم القراءة خاصة إذا استلقيتم على أرجوحة. لذلك تبقى الكتب أفضل رفيق عند غرق سفينتكم أو بعد ذلك.

ولأغراض علمية، قد تحول الكتب الموجهة للقراءة إلى قرص مضغوط يتضمن نصوصا ذا روابط متعددة، فقد يحتاج المثقف إلى أن يعرف على سبيل المثال عدد المرات التي ظهرت فيها كلمة "good" في كتاب " الفردوس المفقود (the Paradise Lost)، فضلا عن وجود أنواع من النصوص التي تحيل على روابط متعددة خاصة بالشعر وتبعاً للكتاب الموجه للقراءة أو النص الشعري المراد تحويله إلى نص فائق متعدد الروابط.

وفي هذه النقطة، نكون قد انتقلنا إلى السؤال الثاني، إذ لم يعد الأمر يتعلق هنا بمسألة عملية بل بطبيعة عملية القراءة.

يمكن للرواية البوليسية أن تبنى على طريقة مفتوحة باعتبارها قائمة على طريقة نص متعدد الروابط، وبهذا يكون بمقدور القارئ تحديد مسار معين من القراءة لتطوير أحداث روايته الشخصية، فيكون له عندئذ رأي في تعيين هوية المذنب الذي قد يصبح بذلك المحقق بدلا من كبير الخدم. وهذه الفكرة ليست جديدة، فقبل اختراع الحاسوب، كان الشعراء و كتاب الرواية يحلمون بنص مفتوح تماما، ويعيد القراء كتابته بصفة مختلفة لعدد غير متناه من المرات. وهذا ما كان موضوع فكرة "الكتاب" (Le Livre) الذي أثار حماس صاحبه مالارمي (Mallarmé)، ورواية (صحوة فينجان (Finnegans Wake) الذي كان في اعتقاد "جويس" (Joyce) انه الكتاب الملائم لقارئ واقع تحت سيطرة الأرق. وفي الستينات من القرن الماضي، كتب "ماكس سابورتا (Max Saporta) رواية كان من الممكن فصل صفحاتها لتأليف قصص صغيرة. وكتب "تاني بلستريني" على أحد أقدم حاسوب قائمة من الأبيات المتقطعة التي جمعها الجهاز ونظمها بطرق مختلفة ليتم تركيب عدد من القصائد. وابتكر "رموند كونو" (Raymond Quenau) تركيبة من الحلول الحسابية كان لها الفضل في إتاحة إمكانية نظم الملايين من القصائد من خلال مجموعة محدودة من الخطوط. كما سجل العديد من الموسيقيين المعاصرين على أجهزة الحواسيب عددا من العلامات المتحركة يمكن للمرء تأليف مقطوعات موسيقية مختلفة باستعمالها.

ربما أدركتم الآن أننا نتعامل هنا مع مسألتين مختلفتين. أولاها، فكرة النص القابل للتحريك شكلا، ويفترض أن يمنح القراء شعورا بالحرية المطلقة، لكن ذلك يبقى شعورا، أو مجرد وهم بالحرية.

فالجهاز الوحيد لوضع نصوص غير محدودة موجود بالفعل، وهذا منذ آلاف السنين، وأعني به الحروف الأبجدية، إذ بعدد قليل من الحروف يتمكن المرء من إنتاج الملايين من النصوص، وهو بالضبط ما تم القيام به في كتاب "هوميروس" (Homer) إلى يومنا هذا. نصوص تحفيزية لا تزودنا بالحروف أو بالكلمات، بل بسلسلة من الكلمات

المسبقة الوضع، أو الصفحات التي تقيد حريتنا في إبداع ما نريده. فحريتنا تقتصر فقط على تحريك عدد محدود من الطرق الموضوعية مسبقا في شكل فقرات نصية.

ولكنني كقارئ أمتلك هذه الحرية، وحتى وإن أنا قرأت رواية بوليسية تقليدية، فلن يمنعي أحد من تخيل نهاية مختلفة. مثلا في رواية عن موت عشيقين، يمكنني كقارئ التباكي على مصيرهما، أو تخيل نهاية ينجو فيها كلاهما من موت محقق ويعيشان سعيدين إلى الأبد. أنا كقارئ، أشعر إلى حد ما بالحرية مع النصوص المحدودة شكلا، تلك التي قد تسيطر على تخيلاتنا عدة سنوات، مقارنة بتلك التي يمكن تحريكها ولا تسمح بإحداث تحويرات كثيرة فيها.

ويقودنا هذا الاحتمال إلى المسألة الثانية التي تتعلق بالنصوص المنتهية شكلا، ذات التأويل المفتوح بطرق مختلفة على الأقل. في الواقع، كان هذا هدف جميع الشعراء والروائيين. ولكن النص الذي قد يحتمل تأويلات عديدة ليس بالضرورة نصا يحتمل جميع التأويلات.

أعتقد أننا هنا أمام ثلاثة أنواع من النصوص التي تحيل على روابط متعددة، وينبغي علينا أولا وقبل كل شيء، أن نوضح بكل دقة الاختلاف القائم بين الأنظمة والنصوص. فالنظام (اللساني على سبيل المثال) يتضمن جميع الاحتمالات التي تعرضها لغة طبيعية ما، إذ يمكن تفسير كل عنصر لساني بمصطلحات لسانية أو دلالية أخرى: كلمة بواسطة تعريف، حدث بمثال، صنف من أصناف الطبيعة بصورة وهكذا. وربما كان النظام محدودا، ولكن غير محدد، وعندئذ تجدون أنفسكم داخل دوامة لا متناهية. بالطبع، هذا يعني أن كل الكتب الموضوعية موجودة ضمن قاموس جيد وقواعد نحوية مضبوطة. فإذا كان بمقدورك استعمال قاموس "ويستر" (the Webster) صار في إمكانكم كتابة "الفردوس المفقود" ورواية "أوليس".

وبلا شك، قد يجعل النص المتعدد الروابط كل قارئ كاتباً إذا جرى تصويره بهذه الطريقة. ضعوا نصا بين يدي شكسبير وتلميذ ما إذا انطويا على نفس الرغبة في كتابة "روميرو و جوليت"، فإنهما سيصلان إلى نفس المفارقة. ومع ذلك لا يعتبر النص نظاما لسانيا أو موسوعيا، ذلك أن نصا معيناً يقلل من احتمالات نظام ما غير محدودة وغير محدد لتشكيل عالم مغلق. لاشك في أن رواية (صحوة فينجان) مفتوحة على تأويلات عديدة، ولكن من المؤكد أنها لن تقدم لكم أبدا شرحا لنظرية "فيرما" أو القائمة الكاملة لكتب "وودي آلان". قد يبدو هذا أمرا تافها، لكن الخطأ الذي ارتكبه التفكيكيون حين اعتقدوا أنه في مقدورهم فعل كل ما نريده بالنص كان خطأ جسيما. فالنص الذي يحيل على روابط متعددة محدود ومحدد رغم كونه مفتوحا على التأويلات الغريبة التي لا يمكن عدها.

إذ أن هذا يتأقلم في تعامله مع الأنظمة بشكل ممتاز، ولكن هذه الأخيرة لا تتوافق مع النصوص كلها. الأنظمة محددة لكن غير محدودة، لكن النصوص محددة ومحدودة حتى وإن هي سمحت بوجود عدد هائل من التأويلات الممكنة (ولن تبرز جميع هذه التأويلات). ومع ذلك هناك احتمال ثالث، وهو أنه قد نتصور وجود نصوص متعددة الروابط غير محددة وغير محدودة.

لكل قارئ القدرة على إضافة شيء، وتأليف نوع من موسيقى الجاز انطلاقا من قصة لا نهاية لها. وهنا بالتأكيد يختفي المفهوم الكلاسيكي للتأليف لتحل محله طريقة جديدة لإنجاز إبداع حر. وكوني وراء "العمل المفتوح"، لا يسعني

إلا أن أحبي مثل هذه الإمكانيات. ومع ذلك فهناك فرق بين القيام بعملية إنتاج نصوص ونصوص موجودة مسبقا. ينبغي أن تكون لنا ثقافة جديدة يتم فيها التفريق بين إنتاج نصوص غير محدودة وتأويلات دقيقة ونصوص محدودة . وهذا ما يحدث في ثقافتنا الحالية حيث نسعى إلى تقويم مختلف لأداء مسجل لسفونية "بيتهوفن" الخامسة ومقطع من دورة موسيقية في نيواورليانز .

نحن نسير نحو مجتمع أكثر تحررا، يتعاش فيه الإبداع الحر مع التأويل النصي، ويروقني ذلك. ولكن، علينا ألا نقول إننا استبدلنا شيئا قديما بأخر، بل لدينا الاثنان معا، وهذا بفضل الله . فلا علاقة لعملية الانتقال بين القنوات التلفزيونية بمشاهدة الأفلام . ولا علاقة للوسائل المتضمنة نصوصا متعدد الروابط بقدرتنا على تأويل نصوص موجودة مسبقا. ولا يزال هناك غموض بين وحول مسألتين مختلفتين:

(1) هل سيؤدي الحاسوب إلى إهمال الكتب؟

(2) وهل سيؤدي إلى إهمال أدوات الكتابة والطباعة؟

ولنفترض أن الحاسوب سيؤدي إلى زوال الكتاب، لكن ذلك لا يعني زوال وسائل الطباعة . ذلك أن الحاسوب قد وضع طريقة جديدة لإنتاج المستندات ونشرها. وقصد إعادة قراءة نص وتصحيحه على نحو لائق، هذا إن لم يكن رسالة قصيرة، فإن الإنسان يحتاج إلى طباعته، ثم إعادة قراءته وتصحيحه على الحاسوب وإعادة طباعته مرة ثانية . ولا أعتقد أنه يمكن لشخص ما كتابة نص من آلاف الصفحات وتصحيحه دون طباعته على الأقل مرة واحدة. الناس يرغبون في التواصل فيما بينهم، وكان هذا الأمر يتم في المجتمعات القديمة شفويا. وقد حاولت المجتمعات الأكثر تعقيدا القيام بذلك عن طريق الطباعة. وينبغي التوضيح بأن الكتب المعروضة في محلات بيع الكتب مطروحة على سبيل الدعاية حتى وإن كانت من المطبوعات الجامعية. لكننا مع تكنولوجيا الحاسوب ندخل عصرا جديدا من المنشورات الحائطية. إذ بمقدور الناس التواصل بشكل مباشر دون وساطة دور النشر. العديد منهم لا يريدون النشر، بل أن يتواصلوا فيما بينهم فقط. وهم اليوم يقومون بذلك عن طريق البريد الإلكتروني أو الانترنت، وسيكون لذلك امتياز كبير على الكتب وحضارة الكتب وسوق الكتب.

فلننظر إلى محلات بيع الكتب. إنها تعج بها . وأنا شخصيا تصلني كتب كثيرة كل أسبوع، فإذا نجح الحاسوب في تقليص عملية نشر الكتب هذه، سيمثل ذلك أعظم تطور ثقافي.

ولعل من أكثر الاعتراضات شيوعا ضد القراءة والكتابة المزعومة بفضل الحاسوب اعتياد الشباب أكثر فأكثر على التكلم باستعمال صيغ قصيرة مبهمه مثل: دير (dir) - مساعدة (help) - نسخ القرص (discopy) - خطأ رقم 67 (erreur67) وغيرها. ومن أكثر الصيغ استعمالا في الشبكة: CULTR (رسالة قصيرة باللغة على شكل: تراكم في وقت لاحق). فهل هذه هي المعرفة بالقراءة والكتابة ؟

أنا من هواة جمع الكتب النادرة، وأشعر بالسعادة حين أقرأ عناوين تعود إلى القرن السابع عشر على مدى صفحة واحدة، وأحيانا أكثر، فهي تشبه عناوين أفلام " لينا فيرتمولر" (Lina Wertmuller) . المقدمات تتطوي على عدة صفحات، وهي تتضمن صيغ مجاملة تتم فيها الإشادة بشخصية مثالية غالبا ما تكون شخصية الإمبراطور أو البابا، وتتعدد الصفحات التي يجري فيها شرح المقصد وقيمة النص الذي يليه بأسلوب فيه الكثير من البهرجة.

لو اطلع كتاب عهد الباروك على كتب متقفينا المعاصرين لأصيبوا بالرعب. المقدمات عبارة عن صفحة واحدة، وهي تلخص بايجاز موضوع الكتاب، وتوجه الشكر لأولئك الذين قدموا دعمهم السخي من الوطن أو من الأجانب، ثم كلمة قصيرة عن الحب والتفهم الذي عبر عنه كل من الزوجة أو الزوج والأطفال مما جعل صدور هذا الكتاب أمرا ممكنا مع الإشارة إلى السكرتيرة التي طبعت المخطوط بإتقان، ومن هنا نطلع على جميع الصعوبات الإنسانية و الأكاديمية التي تكشف عنها هذه السطور القليلة: السهر مئات الليالي في سبيل تصوير النسخ، والعدد الهائل من سندويشبات 'الهمبرغر' الباردة التي هضمت على وجه السرعة.

لكن دعوني أتوقع أننا في مستقبل قريب سيقصر كل ذلك على ثلاثة سطور : C /W , سميت , روكفيلر (تقرأ على النحو التالي: أشكر زوجتي وأولادي. تمت مراجعة الكتاب بكل تمنع من قبل البروفيسور سميت، والفضل لمؤسسة "روكفيلر" التي جعلت صدوره أمرا ممكنا).

ومن شأن هذه الصيغة أن تصبح فصيحة مثل المقدمات المكتوبة بأسلوب البهرجة الباروكية. فالمسألة لا تخص البلاغة فحسب، بل والمعارف المتعلقة بها وبجميع أنواعها أيضا. أعتقد أنه سيتم خلال السنوات القادمة بعث رسائل غرامية على شكل تعليمات قصيرة على أساس لغة قاعدية بصيغة "لو...ف...". للحصول على شبه معلومة، مثلما جاء في: "أحبك، ولهذا لا أستطيع العيش من دونك" (بيت جميل للشاعرة إميلي ديكنسون).

وإذا لم تخنني الذاكرة، فإنه تم إدراج بعض البرامج اللغوية إلى جانب أعظم الأدباء الانجليز:

2B OR/NOT 2 B (أن نكون أو لا نكون)، وفقا للصيغة التي يتداولها الشباب اليوم لكتابة رسائلهم القصيرة).

هناك مقولة غريبة ترى أنه كلما زادت الألفاظ في التعبير ازداد التفكير عمقا واتسعت آفاقه. فالشاعر "مالرمي" يقول إنه "يكفي تفسير كلمة 'وردة' للدخول في عالم من العطور والأشكال والأفكار". وعادة ما تدل قلة التعابير في قصيدة ما على كثرة معانيها. وتوحي ثلاثة أسطر للفيلسوف 'باسكال' (Pascal) بالشيء الكثير مقارنة ب 300 صفحة من دراسة طويلة ومملة حول الأخلاق والميتافيزيقا. فالسعي وراء إيجاد معرفة جديدة بالقراءة والكتابة، أو ما تبقى منهما، لا يجب أن يكون نفس السعي وراء الكم المطلع على كيفية استعمال الحاسوب، ذلك أن أعداء المعرفة يخفقون في غير هذا المكان.

حاولت حتى الآن أن أبين لكم أن ظهور الوسائل التكنولوجية الجديدة لن يجعل بالضرورة الوسائل السابقة في دائرة الإهمال. فالسيارة أسرع من الدراجة، ولكنها لم تمكن من إهمال الدراجات. ولن يكون أي تقدم تكنولوجي أحسن مما كانت عليه هذه الأخيرة. والفكرة التي ترى أن التكنولوجيا الجديدة ستبطل دور ما وجد من قبل تبالغ في التبسيط. فلم يشعر الرسامون بعد اختراع "داغير"، أي آلة التصوير، بضرورة استخدامها لرسم الواقع كما نطمح به، كما أن الحرفيين لم يلزموا أنفسهم بالقيام بذلك. لكن هذا لا يعني أن اختراع آلة التصوير عمل على تشجيع الفن التجريدي فقط. فهناك تقاليد كثيرة تتعلق بفن الرسم الحديث لم يكن وجودها ممكنا بدون نموذج الصورة الفوتوغرافية، من مثل تيار الواقعية المفرطة على سبيل المثال (hyper-realism). الواقع هو الذي تشاهده عينا الرسام من خلال العين الفوتوغرافية.

ولا شك في أن ظهور السينما والمسلسلات الكوميدية ألقى الأدب من بعض الأعمال السردية. وإذا كان شيء من هذا القبيل يدعى بالأدب الحديث فهو راجع إلى حد كبير إلى تأثيره بالمسلسلات الكوميدية أو السينما. ولنفس السبب، أنا

لا أحتاج اليوم إلى بورترية ضخم لرسام غير محترف، وإمكانى أن أرسل إلى حبيبتى صورة جميلة لي. وهذا التغيير في الوظائف الاجتماعية لم يؤد إلى إهمال فن الرسم رغم أن عملية رسم البورتريهات لا تضطلع اليوم بنفس الوظيفة التي تؤديها عملية تصوير الأشخاص، (وهب الوظيفة التي يمكن القيام بها بشكل أفضل وبتكلفة أقل). إلا أن رسم لوحات لشخصيات هامة على سبيل الاحتفاء بها يقتضي اقتناء وعرض مثل هذه الصور على أن يتم ذلك في جو يوحي بالاستقرار.

وببساطة، فإن عدم التعود على ثقافة ما في التاريخ يعني ببساطة أن شيئاً قتل شيئاً آخر، أو أن أمراً ما غير شيئاً آخر. ولقد اقتبست هذا من "ماكاهان" وفقاً لفكرة استبدال "مجرة غوتنبرغ" بـ "المجرة المرئية"، وقد رأينا عدم صحة ذلك خلال العقود الأخيرة، إذ أعلن ماكاهان نفسه أننا نعيش في قرية إلكترونية عالمية جديدة. بالطبع، نحن نعيش في مجتمع إلكتروني، عالمي بما فيه الكفاية، لكنه ليس قرية، اللهم إلا إذا كنا نعني مستوطنة بشرية يتواصل فيها الناس مباشرة مع بعضهم البعض.

والمشاكل التي يواجهها المجتمع الإلكتروني هي كالتالي:

(1) الوحدة، فالمواطن الجديد في هذا المجتمع حر في إبداع نصوص جديدة، وأبطال بالمعنى المفهوم التقليدي للتأليف، وحذف التمييز التقليدي الكامن بين الكاتب والقارئ، لكن الخطر الكامن في الاتصال الذي يتم مع العالم بأكمله عن طريق شبكة المجرة هو أن يشعر المرء بالوحدة.

(2) كثرة المعلومات وانعدام القدرة على التمييز. عادة أقول إن صحيفة نيويورك تايمز NYT التي تظهر كل يوم أحد هي نوع من الصحف التي يمكنكم أن تجدوا فيها كل شيء صالح للطباعة. فهي تتضمن 500 صفحة تخبركم عن كل ما تريدون معرفته حول أحداث الأسبوع الماضي، ومعلومات عن العدد القادم. مع كل هذا لن يكفي أسبوع واحد للإطلاع على جميع صفحات جريدة NYT ليوم الأحد. فهل هناك فرق بين جريدة تخبركم عن كل شيء لا يكون بمقدوركم قراءتها بأكملها، وأخرى لا أخبار فيها؟. وهل هناك فرق بين NYT و جريدة "Pravda"؟

ولا يزال قارئ صحيفة نيويورك تايمز يستطيع التمييز بين عرض الكتب والصفحات المكرسة للبرامج التلفزيونية والملحق الخاص بالعقارات وهي القدرة على التمييز التي لا يمتلكها مستخدم الانترنت. نحن اليوم عاجزون عن التفريق للوهلة الأولى بين مصدر موثوق به وآخر غير موثوق به. نحن بحاجة إلى شكل جديد من القدرات النقدية، كفن غير معروف من الاختيار، وباختصار، نحن بحاجة إلى حكمة جديدة، إلى نوع جديد من التدريب التعليمي.

اسمحوا لي أن أقول لكم إن وظيفة الكتب ستظل بالغة الأهمية بهذا المنظور. فمثلاً تكون حاجتكم إلى كتيب مطبوع لمعرفة كيفية التصفح على مواقع شبكة الانترنت، ستكون حاجتنا إلى كتيبات أخرى مطبوعة من أجل مواجهة حاسمة على الشبكة العنكبوتية العالمية "WWW".

واسمحوا لي أيضاً أن أختتم محاضرتي هذه بالإشادة بالعالم المحدود والمحدد الذي يقدمه لنا الكتاب. فلنفترض أننا نقرأ رواية "تولستوي" " الحرب والسلام"، إنكم حينئذ تتمنون من كل قلوبكم ألا تقع البطلة 'ناتاشا' في غرام ذلك البائس

النذل (Anatoli)، وتتمنون أن يظل (Andrej) على قيد الحياة، وأن يعيش هو و'ناتاشا' معا إلى الأبد. لو كانت هذه الرواية في شكل قرص مضغوط يتضمن نصوصا متعددة الروابط، لكان بمقدوركم إعادة كتابة قصتكم الخاصة، حسب مزاجكم وإبداع عدد هائل من قصص "الحرب والسلام" يتمكن فيها "بيير بيزوخوف" (Pierre Buschov) من قتل نابليون، أو ربما يهزم فيها نابليون الجنرال Kustov.

للأسف لن يتسنى لكم ذلك مع هذه الرواية، إذ يتعين عليكم القبول بقوانين القدر، وأن تدركوا أنه لا يمكنكم تغييرها. فالرواية المتضمنة نصوصا متعددة الروابط تسمح لنا بممارسة الحرية والإبداع، وآمل أن يمارس مثل هذا النشاط الإبداعي في المدارس مستقبلا. لكن رواية "الحرب والسلام" المكتوبة لا تجعلنا نتعرف على إمكانيات الحرية اللامتناهية، بل أن نكون في خدمة قانون الضرورة. إننا نحتاج كذلك إلى تعلم دروس الموت والحياة من أجل أن نصبح أحرارا، وستبقى الكتب الوحيدة الوسيلة الوحيدة التي تزودنا بمثل هذه الحكمة.

هذه المحاضرة ألقاها إمبرتو إيكو Umberto Eco في الأكاديمية الإيطالية للدراسات العليا بالولايات المتحدة الأمريكية. وإمبرتو إيكو عالم دلالات وروائي ترجمت أعماله الفكرية والأدبية إلى العديد من اللغات العالمية.